

بعث القديم

للدكتور محمد مندور

— — —

ليس من شك في أن ثقافة الحديثة تقوم كما قلنا في المقال السابق على أساسين : بعث التراث العربي القديم والأخذ عن أوروبا ، واتعد كان للحملة الفرنسية في ذلك أبلغ الأثر وذلك لأنهم : نقل الطباعة إلى مصر وفتح منافذ بلادنا على العالم الغربي . ولا ريب في أن عود الفرنسيين إلى بلادهم حاملين آلات الطباعة التي كانوا قد أحضروا إليها إلى مصر قد أضر نهضتنا الثقافية ما يقرب من جيل ، وذلك لأننا لم نستطع أن نستخدم الطباعة بعد ذلك إلا في سنة ١٨٢٢ أي بعد الحملة الفرنسية بمشرين عاماً ، وإذا ذكرنا أن حركة البعث العلمي في أوروبا لم تنصب ما أصابت من نجاح في القرن السادس عشر بعد الميلاد إلا بفضل تلك الطباعة ، أدركنا أن نهضتنا الثقافية الواسعة لم تبدأ في حقيقة الأمر إلا منذ استخدامنا لآلات الطباعة على نحو مطرد أي منذ سنة ١٨٢٢ كما قلنا ، وإنه وإن تكن الجمعيات العلمية التي ألفت لنشر الكتب لم تتسكن في حقيقة الأمر إلا بعد ذلك بكثير ؛ فجمعية المعارف التي أسسها محمد عارف باشا لا ترجع إلى

في الحضارة الإنسانية ، ويوفوا دينهم للتاريخ . وإن يكونوا إلا كما كانوا من قبل أنصار حق ودعاة أخوة وبناء مدنية وأئمة يهدون إلى الحق وبه يمدلون . ليست دعوة العرب عدواناً على أحد ولا عداوة لأحد ، وإنما هي دعوة الأمة الكريمة العزیزة العادلة التي تعرف ما يجب عليها لنفسها وللناس ، وتحرص على أن تحمل ما هي أهل له من الإعباء ، وتشيد ما هي جديرة به من المكارم ، وتأخذ حقوقها وتؤدي واجباتها على سبيلين بين العدل والإحسان ، وخطة قويمه من الهدى والرشد . والله المسؤول أن يهيئ لها من كل أمر رشداً

هبة الولهاب هزاسم

أبعد من سنة ١٨٦٠ وهي تشبه في تكوينها إلى حد بعيد لجنة التأليف القائمة الآن وشركة طبع الكتب العربية التي كان من أعضائها حسن باشا عاصم وأحمد بك تيمور لم تنأسس إلا سنة ١٨٩٨ ؛ إلا أن حركة البعث أقدم من ذلك بكثير فهي لم تنتظر تكوين الجمعيات لتبدأ ، ولعل انتشار الأفكار الأوروبية بفضل أعضاء البعثات كان من أهم الدوافع لذلك البعث ، فرجل كرفاعة الطهطاوي — قد فطن بلاريب أثناء إقامته بفرنسا إلى أن النهضة الأوروبية التي رآها قد ابتدأت بحركة بعث قوبة الآداب القديمة لانيونية ويونانية ، ولهذا كان يؤمن بأن نهضة بلادنا لا يمكن أن تتمتع على النقل عن أوروبا فحسب ، بل يجب أن تنمي إلى جانب ذلك بعث القديم العربي

ولقد ظهرت آثار هذا البعث في الشعر قبل ظهورها في النثر ، وأكبر شخصية تمثل بعث الشعر هي بلا شك شخصية محمود سامي البارودي ، وتلك ظاهرة من البير فهمها ، فالنثر الذي كان شائعاً عندئذ لم يمد أن يكون : إما نثراً تعبيرياً يستخدم في التأليف العلمي أو في الصحافة ، وإما نثراً شخصياً كالذي نجده في الرسائل ، والنوع الأول لم يكن يخلو من عجمة في الصحف ومن نزعة للجدل والتعقيد في التأليف . والنثر الشخصي ظل نثراً مسجوعاً لفظياً متكلفاً حتى عند أرائك الكتاب الذين تمت ثقافتهم حتى امتلكوا أفكاراً يفنهم جمالها أو عمقها عن تزويق اللفظ كالأستاذ الإمام الذي ظل يكتب بالأسلوبين معاً ، أسلوب التأليف وأسلوب الرسائل

وفي الحق إننا لا نعرف أسلوباً يتميز به الأدب الحديث بأصيق معانيه غير أسلوب القصة ، فهي أكبر مظهر من مظاهر الأدب الحديث ، وليس يخاف أن القصة حديثة العهد ببلادنا وهي مجرد ظهورها أخذت تغذي السجع بمادة الفكر وتنقله عن التفاهة إلى الجد ، وهذا واضح في حديث عيسى بن هشام ؛ فأسلوب المولايحي رغم حرصه على أوجه العبارة البلاغية لا يخلو من فكر وإحساس صادقين ، وذلك لأن القصة بطبيعتها تقدم

تقدم أن نجد في أسلوبهم آثاراً واضحة للتأثر باللغات الأجنبية ، وما نظرنا في حاجة إلى أن ندل على ما في أسلوب كاتب كبير كطه حسين من تأثر واضح بطرق الأداء الفرنسية

وأما الشعر فقد سبق النثر — كما قلنا — إلى التحلل من سخافات الصنعة اللفظية وتفاهة المادة ، وسر هذا التحرر يرجع إلى بحث الشعر العربي القديم من جهة ، وإلى طبيعة هذا النوع من الأدب من جهة أخرى ، فنحن نلاحظ أن البارودي قد سلك إلى تكوين مذهبه الشعري نفس السلك الذي سلكه من قبل أبو تمام ، فالشاعر العباسي قد كان دائم القراءة للشعر القديم والاختيار منه ، حتى قالوا إنه قد ألف ثمانية أنواع من الخفارات ، ولا يزال بين أيدينا ديوان الحامسة شاهداً بأن هذا الشاعر كان أحسن اختياراً وتدقيقاً للشعر منه خلقاً له . وكذلك فعل البارودي ، فاختارته تضم جانباً كبيراً من خير ما خلف العرب . وشعر البارودي نفسه شديد الشبه بشعر المتنبي ، كما أن شعر صبري باشا يكاد يحكي شعر البحتري ، وفي هذه الحقائق ما لا يدع مجالاً للشك في أن نهضة الشعر الحديث عندنا إنما قامت على بحث القديم ومحاكاة

وموضع التساؤل هو : كيف يستطيع شعر يقوم على محاكاة القديم أن يعبر عن حياة جديدة ؟

هذه المشكلة سبق أن واجهها الأدب العربي واقتتل حولها النقاد والشعراء ، ففي العصر العباسي سخر أبو نواس من الدمن والأطلال وبكاء دعد وإسماع الرقيق وإلف الناقة ، وظنه تجديداً أن يخرج على تلك الأوضاع لينازل الخمر ويداعب الفلمن ويصف القصور والحداث . وهذه النظرية وإن تكن لها وجهة الظاهر ، إلا أنها في الحقيقة لا تمدو أن تكون وجهة سطحية ، فالقن ليس بهيكله ، وإنما هو بروحه وصياغته ، ولا أدل على ذلك من أننا نزال إلى اليوم نؤمن بأن خير ما خلف العرب من شعر هو لا ريب الحنين إلى الديار ، وذلك لأن هذا الحنين وإن لم يمت إلى تجاربنا الحاضرة بسبب من واقع الحياة ، إلا أنه يرمز

للكاتب مادة ، وكل مادة تحتاج إلى العبارة عنها ، فيأتي الأسلوب محملاً بشك المادة

ومنذ أن خطا أسلوب النثر تلك الخطوة أخذ يشيع في غير القصص حتى امتد إلى المقالة أو الموضوع القصير على نحو ما نجد عند السيد توفيق البكري الذي جمع في أسلوبه بين الصنعة اللفظية وجمال الصور الخيالية وصدق الإحساس أو أصالة الرأي . ولكننا رغم كل ذلك لا نستطيع أن نقول إن النثر قد وصل عندئذ إلى ما لم يكن بد من أن يصل إليه ليجارى النثر الأوروبي فيصبح تمبيراً مباشراً عن فكر عني أو إحساس صادق ثم يتسم رغم مباشرته بصفات الأدب كعمل فني ، وتلك مرحلة لم نصل إليها إلا في القرن العشرين . وليس من شك في أن السيد مصطفى لطفى المنفلوطي هو الذي خطا بثربنا إلى تلك المرحلة الأخيرة . ومنذ ظهور هذا الكاتب العظيم لم يلبث النثر أن استحصده حتى سبق الشعر

واليوم ننظر في نثرنا فنرى تيارين كبيرين ينطوي في أثناء أحدهما المولىحى والبكرى ومصطفى صادق الرافعى واحمد حسن الزيات على اختلاف في الأمزجة وعمق التفكير أو الإحساس ، ولكنهم يجتمعون معاً في خاصية واحدة ، هي أنهم وإن يكونوا أبعد من أن يمثلوا في شيء اللفظية التي سادت في عصور مصر الإسلامية المتأخرة ، إلا أنهم رغم ذلك يحرصون على تجويد العبارة تجويداً فنياً ، ويخضعون الفكر أو الإحساس لطرق الأداء حتى ليأخذك في أدبهم جمال الصياغة قبل أصالة الموضوع ، أو تحس بأن تلك الأصالة قد اضطرتهم إليها أصول الأسلوب التي ينتهجونها والتيار الثاني يبتدىء كما قلنا بالمنفلوطي ، ذلك الرجل المرفه الإحساس المذهب الأسلوب . ذلك الكاتب الذي غذى أجيال الشباب الناهضة أجل الغذاء ، وبلغ من التأثير في نفوسهم ما لم يكذب يلفه كاتب آخر . ولقد كان لمدم معرفة هذا الكاتب باللغات الأجنبية معرفة تعمق وإحساس ، ما احتفظ لأسلوبه بالسلاسة العربية الصافية . وأما غيره من كتاب هذا التيار فلن

إننا لا نزال إلى اليوم أكثر معرفة ودراسة لأدب ذلك العصر منا للأدب الجاهلي والأموي ، وذلك فيما يبدو لسهولة الأدب العباسي ومشقة الأدب القديم ، ثم لأننا فيما أعتقد لم نصل بعد من التصوُّج الفنى إلى حيث نؤمن بتلك الحقيقة الكبيرة التى قال بها من قبل الرجل الصادق الذوق السيد المرسى من أن خير الأدب العربى الجاهلى والأموى .

ونحن نعتقد أن الإمعان فى دراسة ذلك الأدب الجاهلى وتذوقه هو الوسيلة الوحيدة للخطا وبشرنا التقليدى خطوة جديدة أو على الأقل لصيانتة من أن ينقرض أمام تيار الشعر الحديث المستمد من الأدب الغربى

هذه هى مظاهر البعث الأدبى فى مصر المعاصرة أجمالناها ، ونرى أن ننظر فى النقل عن أوروبا ، وكيف أثر هذا النقل فيما بثنا من تراث ، وكيف تفاعل معه ليخلق نوعا جديداً من الحياة الثقافية نجشئ أن يكون جانب كبير منها مفعلاً ، ولكننا نرجى تفصيل ذلك إلى المقال الآتى

محمد مندور

فى حقيقة الأمر إلى مشاعر إنسانية عامة ، لا تزال ولن تزال من أجل ما تحمل من مشاعر ، فربما يثير فى النفس شعور الإلف والحنين إلى الماضى ، والتعلق بالأمكنة التى لا ريب لها أرواح تعلق بأرواحنا فتحملها على المحبة . والإحساس بالأمكنة وما تحوى من ذكريات ومسررات وآلام من أخصب منابع الأدب . ونحن بعد لا نحتاج إلى أن نمارس بالفعل كل التجارب التى نتحدث عنها فى أدبنا ، وإلا كنا قراء الخيال . ومن يستطيع أن يزعم أن كاتباً أو شاعراً ما قد بلا بنفسه كل ما يتحدث عنه ؟ وهل نفسى أن جانباً كبيراً من آداب العالم أجمع لا يمثل ما عاشه كتابه بالفعل ، بل ما ودوا أن لو عاشوه ؟ والواقع والخيال برحمان بعد فى الأدب الصادق إلى منبع واحد ، هو القلب البشرى . وأساس النجاح هو أن يستثير الكاتب فىنا إحساساً حقيقياً ، سواء أكان ذلك الإحساس التفاتة إلى ماضى عرفناه ، أو تلميحاً إلى مستقبل نود أن نعرفه ، أو مزيجاً منهما وإذن فمنذما نسمع الشاعر الذى يقول :

ألا أيها الوادى الذى ضم سيله

إلىنا نوى ظمياء ، حيث واديا
لا نملك إلا أن نهتر ، ولو لم ترفى حياتنا سيلا ولا وادياً ولا عرفنا ظمياء

والشعر القديم أمس قريباً بالروح الشعرية بحكم موضوعه وصياغته ، فالطلل والناقة أحب إلى النفس من القصر والسيارة . الطلل يستثير معنى الفناء ، ونحن البشر لا يحركنا معنى أكثر مما يحركنا هذا المعنى . وإن كان من نعم الله أننا ننسأه أغلب الوقت ، وربما كان فى هذه الحقيقة ما يزيد قوة حينما يثار . والناقة حيوان أليف صبور ودود ، ولا كذلك الآلة الصماء ، وصياغة الشعر القديم كروضاته ألصق ما تكون بحقيقة الفن . الشعر الجاهلى يجمع على نحو رائع شاعرية الروح وواقعية المباشرة ، حتى ترى صورة مادية قريبة مأخوذة من واقع الحياة وقد خلت من كل زكاف فاسد

لقد ابتدأ البعث الشعرى فى بلادنا إذن بإحياء القديم ، ولكن هذا الإحياء لسوء الحظ قد جنح إلى العصر العباسى ، حتى

الشـوامخ

امرؤ القيس

درس ونمى

بـ

الدكتور محمد صبرى

أول كتاب يبرز عبقرية زعيم الشعر الجاهلى بأسلوب

جديد يستند إلى التحليل المقارن بأدب الإفرنج

يطلب من المكاتب الشهيرة - الثمن ٣٠ قرشا